حركة التأليف في الحضارة الحمادية

أ.محمد مكحلي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس

بجاية المدينة الحاضرة:

كلمة بجاية اسم أطلق على المدينة الحالية في وقت غير معلوم و لعله مشتق من كلمة "صنداي" الفنيقية أوسلديا" Bougie[1]يذكر ابن خلدون أن موقع بجاية كان قرية تسكنها قبيلة بربرية تسمى بجاية أو بقاية فأطلق هذا الاسم على المدينة و سميت به [2] دخلت بجاية تحت الحكم الإسلامي حوالي العام 708مـ بعد فتح المغرب نجد في دائرة المعارف الإسلامية أن بجاية لم يكن لها تاريخ يذكر في العهد البربري إلا في عهد بني حماد.لقد ازدهرت بجاية على عهد المنصور الحمادي 481–498 هـ و من أتى بعده ازدهارا عظيما فشيد فيها المنصور قصر أميمون . و ابتنى مسجدا تزينه منارة عالية كما كانت المدينة تنعم بالرخاء و الإزدهار الإقتصادي و التجاري و قد أشاد بها الرحالة وذكروا غناها وعظمتها و نشاطها التجاري. جاء في دائرة المعارف للبستاني أن الناصرية و هو الإسم الذي أطلقه الناصر بن علناس على بجاية لما ثم بنائها فقصدها الناس برا و بحرا و جلبت إليها البضائع و أترى أهلها و كثرت عندهم الصناعات واشتهروا بالتجارة [4] و من جهته يذكرها الإدريسي في نزهة المشتاق بأنها مدينة المغرب الأوسط و عين بلادبني حماد و السفن إليها مقلعة و القوافل منحطة. أهلها مياسير تجار يجالسون تجارالمغرب الأقصى وتجار الصحراء و تجار المشرق..إلخ[5] .

و كانت البضائع راقية و الحرف ناشطة[6] : و أخذ الناس ينتقون من البدارة إلى الحضارة و من خشونة العيش إلى الظرف و أسباب الترف لذلك تعتبر دولة بني حماد من أعظم الدول التي أكسبت المغرب حضارة نادرة المثال[7].

الحياة الثقافية و الفكرية و الحضارة الحمادية:

كانت الحياة الثقافية و الفكرية ببجاية مزدهرة، لقد كانت مقرا لطائفة من علماء الفقه و الكلام و التصوف و الأدب و علوم اللغة منهم أبويعلى المسيلي وأبو محمد عبد الحق الإشبيلي و أوبو الطاهر عمارة بن يحي أبو زكرياءء الزواوي و أبي مدين شعيب و كان الشاعر القسطيني الكبير حسن بن العكون وابن محشرة الكاتب و غيرهم يزينون هذا العصر و يسمون بدرجته العلمية والأدبية[8].

لما برز الحماديون على مسح التاريخ و جدوا أن المغرب و الأندلس وصقلية قد بلغت من الرقي الأدبي منزلة عظيمة فنسجوا على منوالهم فأصبحت الدولة دار علم وأدب و موطن نشاط عقلي و مصدر رقي فكري [9] حتى أصبحت بجاية تضاهي قرطبة والقيروان و غيرها. ساعدهم استتباب الأمن والراحة الداخلية فتفرغوا للعلم و ذويه فأسسوا المدارس و الجوامع تدرس بها العلوم والآداب و اتخذوا الدوائر من الأدباء واحتاطوا بالعلماء و عقدوا المجالس العلمية للمناضرة و كان الملوك منهم يغدقون على العلماء و الشعراء[10].

أولا: حركة التأليف:

راجت حركة التأليف و جميع الفنون من الأدب و التاريخ و الفقه و الطب والحساب و الرياضيات و غيرها [11]. أما المستوى العلمي الذي تمتعت به المدارس كان عاليا و راقيا جدا تباهت به الدولة بحيث اصبحت مدارسها تشد إليها الرحال طلب للعلم والمعرفة و هذا كاف للدلالة على رواج سوق العلم و كمثال و لنا في التراجم التي قدمها أبو العباس الغبريني و كتابه عنوان الدراية أقوى دليل على هذا

الإزدهار الثقافي و كذلك كتاب بغية الرواد ليحي بني خلدون و قد سجل ل و رحلته بعض ملامح عن الحركة العلمية ببجاية "هذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل شلة العلماء الإعلام...و لأهله حتى الخلق و الأخلاق"[12].

ثانيا: ابو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، و عنوان الدراية نموذجا:

أ- ابو العباس الغبريني:ولد بجاية العام 644 ه و توفي بها سنة 707هـ تنتسب أسرته إلى بني غبرين باجواز العزازقة من بلاد القبائل الكبرى ذكر لنا في و رحلته الدراسية أنه درس نوعين من العلوم:

- علوم الدراية: أراد بها علم الفقه و علم أصول الدين
- علوم العربية و التصوف [13] :شغل وظيفة التدريس وقت ما بعدها

تولى القضاء ثم ترقى إلى منصب قاضي القضاة دام في هذا المنصب إلى أن سجن على عهد الأمير خالد و قتل في سجنه مظلوما[14].

ب- مؤلف عنوان الدراية:و هو بالكامل عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تعود شهرته إلى كتابه الجليل كان هذا المؤلف مرجعا لكتاب التراجم بعد بحق اثرا علميا نفيسا يكشف عن الإزدهار العلمي والأدبي ببجاية لقد حصر منهجه في التأليف لمشاهد المائة السابعة من علماء بجاية الإصلاء و الوافدين عليها كابن علي المسيلي وأبي عبد الحق البيجائي الإشبيلي و عمارة الشريف الحسني و غيرهم ضم الكتاب:

1 - ترجمة البجائيين و الجزائريين و من يتصل بهم
2 - ترجمة الأندلسين المهاجرين إلى بجاية و نواحيها
3 - تراجم الغرباء الوافدين عليها من المشرق كما ضم محاور منها.

- محور الفقه: أهمه الفقه المالكي حيث بين أنه كان تقليديا بعدها

نضج و اكتمل و حدثت ثورة في أساليب تدريسه ببروز فقهاء كإبن زيتون و أبي عبد الله شعيب الدكالي[14].

- محور الأدب و الشعر و التصوف

تطور هذا النوع من الأدب على يد جماعة من الكتاب أبرزهم ابن محشرة و عبد الحق بين ربيع البجائي و الفكون.

أما التوصف و الزهد فقسمه إلى السني و الفلسفي ، الفلسفي يمثله ابن عربي الذي مر ببجاية و ابن سبعين و النستري[15].

الخاتمة:

إن بني زيري و بني حماد تعربوا تعريبا تاما، فقد أوطنوا حقيقة الثقافة العربية في بلاد المغرب باحتضان أطرها الإجتماعية من ابهة و مراسيم سلطانية و حياة بلاطية في مجالس علمية أدبية و مباريات شعرية و مطارحات لغوية لقد تأصلت الثقافة العربية إلى حد نبوغ عالمان لا يستهان بهما و تاريخ الأدب العام[16] و هما ابن شرف الشاعر الناقد[17] و ابن رشيق صاحب كتاب العمدة في صناعة الشعر و نقده[18].

الهوامش

1- العبريني أبو العباس أحمد بن أحمد:عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء و المائة السابعة ببجاية الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1982 تحقيق بونار رابح، ص4

2- الغيريني ابو العباس: المرجع السابق ص5

3- نفسه

4- نفسه

5- الأدريسي أبي عبد الله الشريف:نزهة المشتاق ، ديوان المطبوعات الجامعية 1983، تحقيق اسماعيل العربي ص.161

6- الأدريسي، المرجع السابق

7- سليمان داواد بن يوسف: حلقات من تاريخ المغرب الاسلامي ، ط- أبو داود 1993 ص.8

8- الغبريني أبو العباس، المرجع السابق ص21

9- سلميان دواد بن يوسف، المرجع السابق ص87

10- نفسه

11- نفسه

12- رحلة العبدري، تحقيق بن جدوا أحمد ، دار البعث قسنطينة بدون تاريخ ص23

13- أبو العباس الغبريني : عنوان الدراية تحقيق رابح بونار ص25

14- نفسه ص33

15- نفسه

16- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي جII 2000 ص.88

17- ت 460 هـ/1067 مـ

18- ت 456 أو 463 هـ 1070مـ